يولي تسيه

عن البشر

رواية

ترجمة: هبة شريف

كل الأحداث في الرواية والشخوص المشاركة فيها هي من وحي الخيال. أي تشابه مع شخوص في الحياة أو مع شخوص حقيقية تعتبر مجرد صدفة.

الجزء الأول

زوايا مستقيمة

1 براكن

استمري. لا تفكري.
تغرز "دورا" الجاروف في الأرض ثم تسحبه مرة أخرى، تنزع بضربة واحدة جذرًا ممتدًا في الأرض بقوة وتبدأ في تقليب قطعة أخرى من الأرض الرملية. تلقي بأدواتها جانبًا وتضغط بيديها على أسفل ظهرها. آلام الظهر. وهي مازالت في – لابد أن تحسب قليلًا - السادسة والثلاثين. أصبحت، منذ أن بلغت الخامسة والعشرين، مضطرة إلى الحساب في كل مرة، إذا كان الأمر متعلقًا بعمرها.

لا تفكري. استمري. لا يدل الشريط الرفيع من الأرض الذي عزقته على النجاح بأي حال من الأحوال، فعندما تنظر حولها، يسيطر عليها شعور وجودي بانعدام الفرص. مساحة الأرض كبيرة للغاية. لا تبدو مثل شيء يمكن أن يُطلق عليه اسم "حديقة"، الحديقة هي قطعة من الأرض تغطيها الحشائش و فوقها منزل على شكل مُكّعب، مثل تلك الحديقة في ضاحية مدينة مونستر حيث نشأت "دورا"، أو حتى مثل حوض الزهور الصغير الذي يحيط بالأشجار في حي كرويتسبرج في برلين، آخر مكان سكنت فيه "دورا".

الأرض التي تحيط بها الآن ليست حديقة، كما إنها ليست منتزهًا أو حتى حقلًا. أقرب وصف لها هو: "أرض مُلحقة بالبيت". هكذا يُطلق عليها في السجل العقاري. تعرف "دورا" أن الأرض التي تبلغ مساحتها أربعة آلاف متر مكعب تُلحق بالمنزل، وذلك وفق السجل العقاري، لكنها فقط لم تكن تعرف ما هو حجم المساحة التي تبلغ أربعة آلاف متر. الأرض حولها في حجم نصف ملعب كرة قدم، وفوقها بيت قديم. أرض بور نمت فيها النباتات بتوحش، كئيبة وباهتة اللون بسبب شتاء لم يأت أبدًا. إنها كارثة نباتية، ويجب أن يحولها مجهود "دورا" إلى حديقة رومانسية لبيت ريفي. حديقة بها حوض للخضروات.

هذه هي الخطة. فحتى لو لم تكن تعرف أحدًا في محيط السبعين كيلومترًا حولها ، وحتى لو أنها لا تملك أثاثًا، إلا إنها تريد أن تزرع على الأقل خضرواتها. لأن الطماطم والجزر والبطاطس سيحكون يوميًا حكايات عن قدرتها على القيام بكل شيء على الوجه الصحيح، سيقولون إن تصرفها لم يكن مجرد رد فعل طائش عندما قررت فجأة أن تشتري منزلًا ريفيًا بعيدًا تمامًا عن كل تكتل عمراني ويحتاج إلى إصلاح، وإن هذا القرار كان الخطوة المنطقية التالية في مسيرة حياتها، فإذا امتلكت حديقة بيت ريفي سيأتي الأصدقاء من برلين لزيارتها في عطلات نهاية الأسبوع. سيجلسون على المقاعد القديمة فوق الحشائش الطويلة ويتنهدون قائلين: «يا له من مكان جميل هذا الذي تعيشين فيه.» هذا فقط إذا استطاعت أن تعرف حتى ذلك الوقت من هم أصدقاؤها، وفقط إذا أصبح من الممكن أن يزور الناس بعضهم بعضًا من جديد.

لا تعرف "دورا" أي شيء عن أمور البستنة، ولكن لن يشكل ذلك عائقًا. فلهذا السبب وُجدت قنوات اليوتيوب. وهي، لحسن الحظ، ليست من أولئك الناس الذين يعتقدون أن عليهم دراسة الهندسة الميكانيكية حتى يتمكنوا من قراءة عداد التدفئة، كما

يفعل "روبرت" بتشككه الدائم وميله إلى الكمال. "روبرت" الذي أهمل علاقتهما واهتم فقط بنهاية العالم التي أصبحت تنافسها وليس بمقدور "دورا" التعامل معها. إنها تطلب منها التبعية، أن تتبعها إلى أعلى نقطة على طريق التعامل الجماعي مع القدر. لكن "دورا" لا تجيد التبعية. لم يفهم "روبرت" أنها اضطرت للهروب، وأن الأمر لم يكن متعلقًا بالإغلاق. نظر إليها وهي تحمل أشياءها هابطة الدرج كأنها شخص فقط عقله.

لا تفكري استمري. تعرف عن طريق الإنترنت أن وقت الزراعة يبدأ في نيسان/أبريل، وأنه سيبدأ هذا العام مبكرًا عن موعده لأن الشتاء لم يكن باردًا. نحن الآن في منتصف أبريل، أي إنها لابد وأن تسرع من تقليب الأرض. سقطت الثلوج فجأة قبل أسبوعين، بعد أن انتقلت إلى هنا بفترة قصيرة. كانت تلك هي المرة الأولى والوحيدة التي سقطت فيها الثلوج هذا العام. تساقطت ندفات ثلج كبيرة من السماء وأخذت تطفو، فبدت مثل شيء صناعي، مثل مؤثرات بصرية خاصة قامت بها الطبيعة. اختفت الأرض الملحقة بالبيت تحت غطاء أبيض رقيق. أصبح كل شيء أخيرًا نظيفًا، أخيرًا أصبح كل شيء ساكنًا. عاشت "دورا" في تلك الفترة لحظة من لحظات الهدوء العميق. فبدون غطاء الثلج تظل الأرض تعلن بلا انقطاع عن التخريب والإهمال اللذين تعرضت لهما. أوامر لا تتوقف بضرورة إعادة النظام، وبسرعة.

"دورا" ليست نموذجًا للأشخاص الراغبين في الهروب من المدن الكبيرة. لم تأت إلى هنا لتزرع الطماطم العضوية حتى تخفف من إيقاع الحياة السريع. الحياة في المدينة مليئة بالضغط العصبي في كثير من الأحيان بالطبع. قطارات الضاحية المكدسة، وكل أولئك المجانين في الشوارع، بالإضافة إلى مواعيد التسليم النهائية والاجتماعات والحياة تحت ضغط الوقت الشديد وضغط التنافس في وكالة الدعاية والإعلان. ولكن بإمكانك أن تحب ذلك، كما يمكنك أن تنظم الضغط العصبي في المدينة بشكل جيد إلى حد ما على الأقل. أما هنا في الريف، فتسود فوضى الأشياء. "دورا" محاطة بأشياء تفعل ما يحلو لها. أشياء تحتاج إلى إصلاح، أشياء تعمل بنصف طاقتها، متسخة ومهملة، مُدمَرة كلية أو أشياء ليست موجودة من الأساس بالرغم من أنها تحتاجها بشدة. الأشياء في المدينة تحت السيطرة إلى حد ما. المدن هي مراكز للسيطرة على العالم المادي. فلكل شيء يوجد هناك على الأقل شخص واحد مسئول عنه. توجد أماكن يمكن الحصول فيها على بعض الأشياء وأماكن أخرى يمكن التخلص فيها من الأشياء التي لم نعد نرغب فيها. أما في الأرض الملحقة بالبيت، فلا يوجد أحد مسئول سوى "دورا"، بالإضافة إلى الطبيعة التي تحب الاستبداد وتمد أصابع أغصانها النحيلة فوق كل شيء يقع تحتها.

تأتي بعض طيور الشحرور لتبحث عن الديدان في الأرض المحفورة. يحط أحد الطيور السوداء فوق مقبض الجاروف، إنها وقاحة تجعل كلبة "دورا"، واسمها "يوخن ديروخن"[1]، ترفع رأسها. تجلس "يوخن ديروخن" الآن تحت أشعة شمس الربيع لتتعافى من آثار ليلة أخرى في البيت الريفي البارد. لكن عليها أن تقف الآن، في كبرياء، كما ينبغي على أي شخص قادم من المدينة الكبيرة، لتقول رأيها بصراحة لذلك الكائن الريفي المكسو بالريش. تعود بعد ذلك إلى مكانها الدافئ تحت الشمس وترقد على بطنها باسطة قوائمها الخلفيتين، مما يجعل شكلها يبدو مثل سمكة الشيطان مثلثة الشكل التي سميت "يوخن ديروخن"" على اسمها.

أحيانًا ما يتعلق ذهن "دورا" ببعض الجمل التي قرأتها في مكان ما، أو بمعنى أدق، فإن الجمل هي التي تلتصق بها وتبدأ أفكارها في لمسها كما تلمس قشرة خارجية لا يمكن إزالتها.

---

[1] أصل الكلمة في الألمانية هي "Rochen" وتعني سمكة الشيطان، ولها شكل مثل شكل المثلث.

تعتبر هذه القشرة القانون الأول في الديناميكا الحرارية والذي يقول إن الفوضى تزداد وتصل لأقصى درجة لها، إذا لم نستخدم كمية هائلة من الطاقة لاستعادة النظام مرة أخرى. إنها حالة القصور الحراري، حالة الانتروبيا. تجد "دورا" نفسها تفكر في ذلك القانون عندما تنظر حولها، لا تنظر فقط إلى الأرض الملحقة بالبيت، وإنما تنظر حولها في القرية بأكملها، في المنطقة بأكملها. شوارع مكسرة، صوامع وحظائر نصف مهدمة، حانات طغت عليها نباتات اللبلاب. جبال من الخردة فوق الأرض البور، أكياس قمامة ممزقة منتشرة في الغابة. الحدائق بأسوارها الجديدة والمنازل المطلية حديثًا كأنها جزر معزولة يقاوم البشر داخلها القصور الحراري، كأنما لا تكفي طاقة كل فرد وحده إلا لتغطية بضعة أمتار مربعة من العالم. لم تمتلك "دورا" جزيرتها بعد. إنها تقف بشكل ما فوق طوف، متسلحة بأدوات عمل صدئة وجدتها في الحظيرة وتواجه بها القصور الحراري .

اكتشفت "دورا" الإعلان الصغير على موقع "إي باي"، فبحثت عن القرية في محرك البحث "جوجل"، كان ذلك قبل ستة شهور، كان ذلك في عصر آخر، في عالم آخر. قرأت في موسوعة "ويكيبيديا" أن قرية «براكن هي مقر بلدية جايڤيتس بالقرب من مدينة پلاوزيتس في منطقة پريجنيتس الواقعة في ولاية براندنبورج. تضم قرية براكن حي "شوته"، وهو حي غير مسكون. ذُكرت القرية لأول مرة في وثيقة كتبها الأسقف "زيجفريد" في عام 1184. اكتُشفت في المنطقة بعض الآثار السلافية، مما يجعلنا نفترض أن أصل قرية براكن يعود إلى مستوطنة سلافية.»

قرية من شارع واحد مثل أي قرية أخرى في ألمانيا الشرقية. وفي وسط القرية الكنيسة والميدان. بها محطة انتظار للحافلات ومطافئ وصندوق بريد. بها 284 ساكن، 285 ساكن إذا حسبنا "دورا" من بينهم، بالرغم من أنها لم تذهب بعد لتسجل اسمها في إدارة تسجيل السكان. الإدارة مغلقة بسبب كورونا. لا يوجد في الوقت الحالي تعاملات مع الجمهور. هذا هو المكتوب على الصفحة الرئيسية على موقع إدارة جايڤيتس الإلكتروني.

لم تكن "دورا" تعرف أبدًا أنها جزء من أي جمهور. من هم الممثلون إذن؟ لا تفكري في ذلك. لا يجب أن يعلق أي شيء بذهنك. فتكفي كل تلك المصطلحات الغريبة التي ظهرت الآن. *تباعد اجتماعي*. معدلات زيادة متسارعة. تزايد في معدلات الوفاة، درع الوجه الواقي. لم تعد "دورا" تواكب كل تلك الأمور منذ أسابيع. ربما منذ شهور أو منذ سنوات، ولكن بسبب كورونا أصبحت عدم قدرتها على المواكبة واضحة. تدور تلك المفاهيم الجديدة في رأسها مثل الذباب الذي لا نستطيع إبعاده، مهما حركنا ذراعنا لنطرده عنا. لهذا قررت "دورا" أن كل تلك الكلمات لم تعد تخصها في شيء. إنها تنتمي إلى لغة أجنبية في بلد غريب. وقد حصلت الآن على كلمة جديدة لإحداث نوع من التوازن، حصلت على كلمة "براكن". لكن حتى تلك الكلمة لها وقع غريب. كأنها خليط من "الأرض البور" Brachen والسقالات الخشبية Baracken. أو كأنها عمل يقوم به العمال في منطقة بناء، وسط ضجة قوية تتزايد باستمرار، وباستخدام جهاز ثقيل الوزن. سوف نقوم ب "بالبراكن" في الصباح. سنحتاج إلى عمال إضافيين

يقومون ب "البراكن". لابد أن نقوم مرة أخرى ب"براكن" شامل قبل أن نصب الأساس.

تقوم الأفكار بتنغيم الكلمة إن – ترو – بيا، إن – ترو – بيا. تقاوم "دورا" بوعي: استمري. إنها قادرة على ذلك: استمري، حتى لو بدا ذلك مستحيلًا. كان الاستمرار عادة يومية في وكالة الإعلان. مواعيد تسليم جديدة، عروض شراء جديدة. عدد غير كاف من الموظفين، وقت غير كاف. تم العرض بشكل رائع، جرى العرض بشكل سيء للغاية. وافقوا على الميزانية، لم يوافقوا على الميزانية. "سوزانا"، مؤسسة وكالة "سوس واي"، تقول في إفطار يوم الاثنين إننا لابد وأن نفكر بشكل رقمي أكثر من ذلك، لابد أن نغير من طريقة تفكيرنا 360 درجة، بدءًا من الإعلانات الدائرية ومرورًا بإعلانات الراديو وانتهاء بالفيديو الإعلاني على وسائل التواصل الاجتماعي. إفطار يوم الاثنين ليس إلا اجتماع عمل يمتد لساعتين ويتخفى في صورة إفطار، إننا نكسب نقودنا من تفوقنا في الإبداع ومن مركزنا الفريد. كما نكسب أيضًا لأننا نفهم عملاءنا فعلًا، لأننا نساعدهم على إيجاد حلول مستديمة لمشاكلهم. – لا تشعر "دورا" أنها تفتقد إفطار يوم الاثنين. لا مانع أن تستمر كورونا إلى الأبد إذا تعلق الأمر بإفطار يوم الاثنين.

عندما نستمر بالرغم من أن الاستمرار يبدو مستحيلًا، يظهر أحيانًا الشعور بالاختناق. كأنك ترى على طبقك شيئًا متعفنًا عليك أن تبتلعه بالرغم من ذلك. لا يساعد هنا سوى إغماض العينين وسد الأنف ثم الاستمرار في الأكل حتى تنتهي من ابتلاعه. غرز الجاروف في التربة. إنتروبيا، إن - اغرزي، ترو - دوسي على الجاروف، بيا - ارفعي كومًا آخر من التربة.

اختارت بقعة جميلة بين أشجار الفاكهة: شجر التفاح والكمثرى وشجرة كرز بدأت تزهر على استحياء. إنها بقعة بعيدة عن البيت، ولكنها قريبة بما يكفي لتراها من نافذة المطبخ. المساحة هنا مستوية إلى حد ما ولم تكتس بالشجيرات الصغيرة الكثيفة مثل الجزء الأمامي من الأرض والذي يبدو وكأن فروع الشجر الصغيرة الرفيعة قد شكلت حوله سورًا. شجيرات القيقب والروبينيا. تستطيع "دورا" التمييز بين أنواع الأشجار. درس "روبرت" الأحياء وكان يحكي لها بالتفصيل عن الأشجار في كل نزهة يقومان بها في حديقة الحيوان. يشرح كيف تنمو الأشجار، كيف تتكاثر، ما الذي تفكر فيه وما تشعر به. كانت "دورا" تحب تلك الأحاديث وتعلمت منها بعض الأشياء. تقوم شجيرة الروبينيا بغزو أماكن أخرى، إنها شجرة – مهاجرة. تتكاثر بسرعة وتزاحم أنواع الأشجار الأخرى وتطغى على مكانها. يعشق النحل شجرة الروبينيا بشكل خاص. سوف تستغرق إزالة الشجيرات بواسطة المقص والمنشار عدة أسابيع.

لم تنم أشجار الروبينيا بكثافة بين أشجار الفاكهة، ولكن نمت هناك في المقابل أشجار التوت، الأفضل أن نقول إنها أغصان متسلقة ومتشابكة وجافة نمت في العام الماضي. تعرف "دورا" كيف تمسك بالمنجل، ولكنها لا تعرف كيف تشحذه بالشكل الصحيح بالرغم من دروس اليوتيوب، ولهذا السبب أخذت تضرب أشجار التوت بنصل المنجل المثلوم، فبدت وكأنها تريد أن تشق لنفسها طريقًا وسط الأدغال. في يومها الأول في الريف، خرجت "دورا" بعد قضاء ليلة باردة مرتدية ملابسها الشتوية: قميص طويل من القطن، فانلة ثقيلة من القطن، سترة مبطنة. وبعد ربع ساعة بدأت تنزع عنها الملابس قطعة بعد الأخرى كأنها تقشر البصل، ثم وقفت في النهاية بقميصها الداخلي وإلى جانبها كومة من الملابس. ومنذ ذلك الوقت، أصبحت تخرج إلى الحديقة مرتدية فانلة قطنية، مهما بدا الصباح باردًا. الهواء في الصباح نقي، كأنه مغسول؛ تمنحها القشعريرة على جلدها شعورًا لطيفًا. يظل البيت محتفظًا ببرودته، بينما تتصاعد درجات

الحرارة في الخارج على مدار اليوم لتصل إلى عشرين درجة، فيجلب ذلك السعادة على "يوخن" ، التي تصمم منذ انتقالها إلى موطنها الجديد على النوم إلى جانب "دورا" وتحت غطاء فراشها. تظل الكلبة تتنقل في النهار مثل خلية شمسية صغيرة باحثة في الحديقة عن أكثر بقعة دافئة.

مر عيد الفصح بلا ضجيج. يقال إن الإغلاق يبرز اختلافات كثيرة ويضخمها؛ لكنه يساوي بين أيام العمل وأيام العطلات. استطاعت "دورا" أن تخلي مساحة مستطيلة من الأشجار ومدت حولها خيوطًا لتحديدها. استقامت حواف تلك المساحة بشكل رائع وأصبحت زواياها حادة الاستقامة. أضفت الخيوط الحمراء على تلك المساحة المحررة والتي افتتحت حديثًا شكلًا احترافيًا، وجعلت باقي المهمة يبدو وكأنه مجرد شكليات.

لكن اتضح أن هذا ليس صحيحًا. ف"دورا" تغرز منذ أيام الجاروف في الأرض وتحاول انتزاع بعض الحشائش المتشابكة، لكن لا يمكن أن نتحدث هنا في واقع الأمر عن الحشائش؛ فالوصف الصحيح لها هو أعشاب ضارة متشابكة. تتمسك الجذور بالتربة بقوة حتى أن "دورا" كانت تقف فوق الجاروف وتقفز فوقه صعودًا وهبوطًا حتى تتمكن من غرزه داخل التربة. عمل شاق للغاية وليس هذا سوى البداية، فالتحدي الحقيقي يبدأ عندما تغرز الجاروف على عمق أكبر. يتمثل التحدي هنا في موروثات تركها نظام لم يكن أحد فيه يصدق أنه مسئول عن مقاومة الإنتروبيا. فكل من عاش في أحد البيوت الريفية في فترة ألمانيا الشرقية كان يرى أن إلقاء الأنقاض والخردة والقمامة في الحديقة أمرًا لا غبار عليه. يصطدم جاروف "دورا" بقوالب طوب محطمة، وأجزاء معدنية صدئة، ودلاء بلاستيك قديمة، زجاجات مكسورة، فردة حذاء وأوعية طبخ صدئة. حتى لعب الأطفال موجودة أيضًا وسط هذا كله: قوالب رملية ملونة، عجلات لسيارات صغيرة، ووجدت ذات مرة رأس عروسة بدا شكلها مخيفًا وهي تنظر إليها من حفرة في الأرض. تجمع "دورا" تلك الأشياء التي عثرت عليها وتكومها على الحافة وتحيط بها الأرض التي لم تحفرها بعد.

ترفع الجاروف وتستند إلى مقبضه. تستعيد القوة ببطء في ذراعيها وساقيها. تبدو بشرة يديها جافة وحمراء اللون بعد أسبوعين فقط من الحياة في الريف. تقلب "دورا" يديها وتتأملهما كأنهما أشياء لا تخص جسدها. كان حجم يديها دائمًا أكبر من الحجم العادي. كانت تخشى أحيانًا أن تتحرك يداها وحدهما بدون رغبة منها. كأنما يقف إنسان كبير الحجم خلفها ويضع يديه في أكمامها. كان أخوها "أكسل" يتهكم في السابق على يديها الكبيرتين ويصيح: «زعانف "دورا!» فتغضب بشدة. ظل يفعل ذلك حتى ماتت أمهما، فلم يعد أحد منهما يزعج الآخر بعد ذلك، وأصبحا يتصرفان بلطف تجاه بعضهما بعضًا، كأنما تحول كل شيء منذ وفاة أمهما إلى زجاج قابل للكسر، حتى يدا "دورا" الكبيرتان.

كان "روبرت" يزعم دائمًا أنه يحب يديها، على الأقل عندما كان لا زال يحب أي شيء فيها. قبل أن تصبح بالنسبة له مشكلة تنشر ثاني أكسيد الكربون، ثم تتحول إلى قاذف جراثيم محتمل.

تعرف "دورا" بخبرتها أنها لا يجب أن تستغرق وقتًا طويلًا في الراحة. فهي تبدأ في الحساب إذا طالت فترة الراحة أكثر من اللازم. وبعد الحساب يأتي السؤال عن

المعنى. بدأت اقتلاع الشجيرات قبل أسبوعين، وتجتهد منذ ثلاثة أيام في تقليب الأرض. مساحة الأرض التي انتهت من تقليبها تمثل شريطًا عرضه مترًا ونصف المتر تقريبًا. هذا يعني أن "دورا" لم تنته حتى من تقليب سدس المساحة الكلية. إذا استمرت في العمل بهذه السرعة، فسينقضي النصف الأول من شهر مايو قبل أن تتمكن من بذر البذور. الأسوأ هنا هو أن عدم بذر البذور ليس بهذا السوء. فالخضروات يمكن شراؤها في السوبرماركت، بل إن ثمنها هناك أرخص من زراعتها في الحديقة الخاصة إذا حسبنا تكاليف الري. الإغلاق مخيف، ولكنه لا يمثل تهديدًا كبيرًا لدرجة إجبار الناس على زراعة احتياجاتهم من البطاطس بأنفسهم. لا يوجد سبب يجعلها تمتلك حديقة خضروات، لا سبب سوى رومانسية البيت الريفي والأصدقاء الذين سيأتون للزيارة. لكن "دورا" لا تعرف ما هي رومانسية البيت الريفي كما أن لا أصدقاء لها. لم تلحظ ذلك وهي في برلين. فالعمل يترك لها وقتًا قليلًا، وكان لـ "روبرت" عددًا كبيرًا من الأصدقاء يكفي له ولها. هنا في الريف يصبح عدم وجود الأصدقاء مثل دوي مكتوم عند الأفق.

كان تصرفًا أحمق منها أن ألحقت بالبيت كل تلك المساحة الكبيرة. إنه خطأ المبتدئين الشائع. خمسة عشر مترًا مربعًا كانت كافية تمامًا للبداية بدلًا من مئة وخمسين مترًا. لكن لم يكن لـ "دورا" رغبة في إزالة الخيوط التي مدتها بمهارة حول المساحة المحددة. فهي تحيا منذ سنوات من قدرتها على إنهاء المشروعات التي بدأتها، مهما بدا ذلك عبثيًا. التعامل مع العملاء الذين يغيرون رأيهم يوميًا والذين يطالبون باستمرار بمقترحات بديلة، الذين يعارضون بعضهم بعضًا ولا يتخذون أية قرارات خوفًا من رؤسائهم، كل ذلك أصعب كثيرًا بالتأكيد من العمل في الحديقة.

الاستمرار. فإذا لم تنته من تنظيم الحديقة، سيكون عليها أن تسأل نفسها عن السبب الذي جعلها تشتري هذا البيت.

قد تكون الإجابة على هذا السؤال سهلة إذا زعمت أنها كانت تعرف بالفعل في الخريف الماضي أن كورونا سوف تنتشر. هكذا يصبح البيت في الريف ملجأ لها تختبئ فيه حتى تنتهي الجائحة. لكنها لم تكن تعرف شيئًا. الفترة التي بدأت فيها "دورا" قراءة إعلانات العقارات على الإنترنت، كان تغيّر المناخ وانتشار الفكر الشعبوي اليميني أهم المشكلات المطروحة. وفي ديسمبر، عندما ذهبت خلسة إلى موثق العقود في برلين-شارلوتنبورج، كانت كورونا قد أصبحت عنوانًا في الإعلام، لكنه عنوان لا يحتل الصدارة، فكان لابد أن تتصفح جميع العناوين حتى تجده. كانت كورونا في تلك الفترة أمرًا ما وقع في آسيا. بدأت تجمع بجهد شديد بعض المدخرات التي ضمتها إلى ميراثها عن أمها حتى تتمكن من تحويل جزء من رأس المال المطلوب لشراء البيت، لكنها لم تكن تعرف في ذلك الوقت إذا كانت تريد الانتقال للحياة في الريف بالفعل. كانت تعرف فقط أنها تحتاج إلى هذا البيت. تحتاجه بشدة. تحتاجه كفكرة. كوسيلة ذهنية للبقاء على قيد الحياة. كمخرج طوارئ افتراضي تلجأ إليه لتخرج منه من حياتها.

كانت "دورا" تسمع دائمًا في السنوات الماضية أن الناس تقتني بيوتًا في الريف، في أغلب الأحوال كسكن إضافي. يفعل الناس ذلك أملًا في الهروب من دورة المشروعات اللانهائية. كل من تعرفهم "دورا" على دراية بهذه الدورة. فما أن ينتهي مشروع حتى يبدأ المشروع التالي فورًا. تظل تعتقد لفترة من الوقت أن المشروع الحالي هو أهم مشروع في العالم، تبذل كل جهدك حتى تنهيه في الوقت المناسب وعلى أفضل وجه ممكن. تقوم بكل ذلك ثم تختبر في النهاية كيف تنهار كل أهمية في اللحظة التي تنتهي فيها من المشروع. ثم يبدأ في

نفس التوقيت المشروع التالي، المشروع الأهم. لا يوجد شيء اسمه الوصول إلى النهاية، أو بالأحرى، لا يوجد حتى ما يسمى المضي قدمًا. لا توجد هنا سوى المسارات الدائرية التي يتحرك عليها الجميع لأنهم خائفون من التوقف. في هذه الأثناء كان كل شخص تقريبًا قد أدرك بينه وبين نفسه أن الأمر كله بلا جدوى، حتى لو لم يتحدث أحد عن ذلك. ترى "دورا" ذلك في عيون زملائها، تراه في تلك النظرة المترددة للغاية. الموظفون الجدد وحدهم هم من يعتقدون أننا يمكن أن ننجح في إنجاز "الأمور". لكن "الأمور" لا يمكن إنجازها، لأن "الأمور" تمثل مجمل كل المشروعات المتخيلة ولأن أكبر كارثة متوقعة في الحقيقة لا تتمثل في الوصول إلى الهدف، وإنما الكارثة هي ألا يظهر المشروع التالي. يمثل إنجاز "الأمور" الكذبة المؤسسة للحياة العصرية وللحياة العملية. إنه خداع جماعي للذات انفجر في هذه الأثناء في صمت.

تسرب ذلك الإدراك إلى سراديب مترو الأنفاق في المدن الكبرى، كما تسرب إلى كل ماكينة قهوة، وأخذ يدور سرًا في كل مصعد، في كل دور من أدوار الأبراج الإدارية، وأصبح البشر منذ ذلك الوقت يصابون بالاحتراق الوظيفي. وتستمر العجلة في نفس الوقت في الدوران بشكل أسرع. كأنما يمكننا الإفلات من عبثية الركض إذا ركضنا أسرع.

نعم، يمكننا ذلك. كان ذلك ما تمكنت منه "دورا" على أية حال. فهي لم تقاوم أبدًا دورة المشروعات، وإنما تقبلتها كنموذج حياة مناسب للعصر. لكن تغير شيء ما بعد ذلك. لم يتغير شيء في "دورا"، وإنما تغير شيء ما في المحيط الخارجي. لم تعد "دورا" قادرة على المواكبة، وقدمت لها فكرة امتلاك بيت ريفي حلًا لعدم قدرتها على المواكبة. كان ذلك في الخريف الماضي. وها هي الآن تقف هنا في هذا المكان، وسط قطعة أرضها البور في براكن وتشعر بالخوف، فدورة المشروعات يمكن أن تخرج عن السيطرة. هذا ما يبدو من مشهد الأرض. قطعة الأرض هي مشروعها الملعون التالي، مشروع ربما أكبر من قدرتها على إنجازه هذه المرة.

تقرر في ضيق ألا تستمر في المحاولة. سوف تجبر نفسها على عدم فعل أي شيء لمدة نصف ساعة. تترك الجاروف وتخطو في اتجاه البيت حيث بعض المقاعد المتراصة في ظلال شجرة الزيزفون. تخطو بتثاقل وسط عشب القراص الذي نما في العام الماضي. وجدت "دورا" أثاث الحديقة المتهالك في الحظيرة، وهناك وجدت أيضًا مستلزمات مستقبلها في الريف. ما الذي قاله الوسيط العقاري؟ «نعيش حالة الهناء والرضا عندما نجعل المكان حولنا مريحًا.» إنها غالبًا إحدى المقولات التي يحتاجها من يضطر إلى ترويج البيوت المهدمة في هذه المنطقة.

تجلس "دورا" على أحد المقاعد وتمد ساقيها وتتساءل إذا كانت قد أصبحت في هذه الأثناء بنفس غباء الناس في هضبة پرنتسلاور الذين يحاولون الحد من إيقاع حياتهم السريع بحشر ساعات ممارسة اليوجا والتأمل داخل جدول أعمالهم المزدحم في الأصل. تعرف أن دورة المشروعات مصيدة لا يمكن الإفلات منها بسهولة، فحتى عدم وجود مشروعات تجعل من تلك الدورة مشروعًا جديدًا، فلو حدث غير ذلك ما وقع ملايين من الناس ضحية لهذه الدورة. تأخذ "دورا" نفسًا عميقًا وتقول لنفسها أن مشروعها مختلف عن المشروعات الأخرى. إن المشروعات لا تسبب لها أية مشاكل

في الواقع، فمشكلتها مع "روبرت". لقد وقع شيء ما، ولكنها لا تستطيع أن تواكب ما حدث.

2. روبرت

لم تعد "دورا" تعرف متى بدأ كل هذا. لكنها تعرف أنها كانت تفكر أحيانًا أن "روبرت" يبالغ في اهتمامه بحماية المناخ، ويبالغ عندما يقول إن رجال السياسة مغفلون للغاية، أو يقول إن الآخرين جهلة أنانيون. كان يفقد أعصابه عندما تخطيء في فرز القمامة كأنها ارتكبت جريمة، كان يبدو لها في تلك اللحظة مفرطًا في حماسه وبلا رحمة، وكانت تتساءل بينها وبين نفسها إذا كان يعاني ربما من مرض عصابي أو من وسواس نظافة سياسي قهري مما جعل منه شخصًا مهووسًا بعد أن كان إنسانًا رقيقًا ومفكرًا.

كانت في البداية تشعر تجاهه بالإعجاب، ولكنه إعجاب مخلوط بشيء من تأنيب الضمير. كان "روبرت" يتعامل مع الأمر بجدية. أصبح ناشطًا سياسيًا، وأسس في الجريدة الإلكترونية التي يعمل بها قسمًا خاصًا يتناول فيه قضايا المناخ. كما بدأ يغير من أسلوب حياته، فاتبع النظام الغذائي النباتي تماما (فيجن)، وبدأ يشتري الملابس من خامات مناسبة للطقس، وأصبح يشارك في مظاهرات يوم الجمعة. انزعج لأن "دورا" لم تكن تريد مرافقته في المظاهرات. ألا تعتقد "دورا" أن المناخ يتغير بسبب الإنسان؟ ألا ترى أن العالم يتجه نحو النهاية؟ كانت الإحصائيات جزءًا أساسيًا من أحاديثهما. يستشهد "روبرت" بالأرقام والخبراء والعلماء، وكانت "دورا" تجلس أمامه ممثلة للجمهور العريض الغبي الذي لا يريد أن يقتنع أبدًا. وعندما يفقد السيطرة على كلامه، كان ينتقدها لأنها تعمل في مثل هذه الوظيفة، ويتهمها بأنها تساهم بهذه الوظيفة في زيادة الاستهلاك، وأنها تدفع البشر إلى شراء أشياء لا يريدونها ولا يحتاجونها من الأساس. "دورا" وكيلة لشركة التخلص من النفايات. تدمر الطاقة وتزيد من حجم القمامة. لم تكن تحتاج أبدًا من قبل إلى الدفاع عن مجال الدعاية والإعلان. وبالرغم من ذلك كان "روبرت" يتسبب لها في الشعور بالألم، عندما يتحدث معها بتلك الطريقة.

لم يكن الاقتناع هو ما ينقصها في النهاية. بالطبع كانت ترى أن تغير المناخ مشكلة خطيرة. لكن طريقة توجيه الكلام لها كان يصيبها بالشلل. « How dare you» (كيف تجرؤين) بدلًا من «I have a dream» (لدي حلم). كانت ترى أنه من الأفضل التركيز على الشيء المهم فعلًا بدلًا من الجدال – لن ننهي عصر الوقود الأحفوري، إذا ربينا المواطنين بطريقة أفضل، وإنما سينتهي فقط إذا عدلنا البنية التحتية وطريقة التنقل والصناعة. وكانت تتعجب من "روبرت" الذي كان يشعر بالفخر بنفسه، لأنه قرر ألا يقود السيارات.

لا تحب "دورا" الحقائق المطلقة والسلطة التي تستند إليها. فشيء ما داخلها كان يرفض ذلك. لا ترغب في الشجار لتؤكد أنها على حق ولا ترغب في أن تكون جزءًا من فريق يعتنق أفراده نفس الآراء. إن رفضها الداخلي ليس في العادة دفاعًا عن الذات. إنه رفض لا يُرى، فهي تعيش متكيفة مع الحياة. لكن ينتج الرفض داخلها نوعًا من العند، ينتج مقاومة داخلية ضد الظروف. لهذا وجدت نفسها تقول "لروبرت" ذات مرة إن عليه أن يعرف متى أصبح الاستشهاد بالإحصائيات لديه متعلقًا برغبته في أن يكون

على حق ولا يتعلق بقلق حقيقي. نظر إليها في فزع وسألها إذا كانت تفضل الحقائق البديلة الذي يقدمها شخص مثل "دونالد ترامب".

هنا اتضحت لأول مرة المشكلة في أفكار "دورا": فقد أصبحت أفكارها الآن غير مفهومة، ربما أيضًا مُستنكرة. لا يمكن الحديث عنها، لا يمكن ذلك مع "روبرت" على أية حال. لم يعد ذلك ممكنًا. فقد كان يجلس أمامها كأنه هيئة عليا، متألقٍا وواثقٍا من نفسه، متعاليًا فوق أي خطأ، فوق أي شك، كعضو في مجموعة تجاوزت أوجه القصور في الإنسان. لا تستطيع "دورا" مواكبة ذلك.

لكنها كانت تشعر في نفس الوقت بالخجل من رفضها الداخلي ومن عندها. كان لا يهم في الواقع إذا كان اهتمام "روبرت" منصبًا فقط على أن يثبت أنه على حق، طالما كان على حق. كانت سياسة المناخ وما زالت أمرًا هامًا. بالإضافة إلى ذلك بدا "روبرت" راضيًا، بينما كانت "دورا" تعاني كثيرًا من الشك في نفسها. لابد وأن النضال من أجل أمر هام يجعل الإنسان يشعر بالارتياح. لم يكن "روبرت" يحتاج إلى أن يسأل نفسه سؤالًا عن معنى الأشياء، بل إنه استطاع حتى التغلب على دورة المشروعات بأن استبدل الهدف الأكبر الذي يستحيل غالبًا تحقيقه، بأهداف كثيرة أصغر قابلة للتحقيق. نقلة ذكية على رقعة الشطرنج، تبييت الملك في حركة ذكية.

قررت "دورا" أن تحاول بجهد أكبر. فاستغنت عن تناول اللحوم. أصبحت تبتاع احتياجاتها من محلات المنتجات العضوية، وغيرت من أجل "روبرت" الوكالة الإعلانية التي تعمل فيها. وكالة "سوس واي" وكالة متوسطة الحجم، متخصصة في الدعاية لمنتجات مستدامة، وعملاؤها من المؤسسات غير الهادفة إلى الربح. قررت "دورا" أن تدعم الشركات ذات الإحساس العالي بالمسئولية وتعاونها في تنفيذ أفكارها الصديقة للمجتمع وللبيئة. وبدلًا من الدعاية للحساء المعلب والرحلات البحرية الفاخرة والتأمين على الحياة، عملت "دورا" في وكالة "سوس واي" على تطوير أفكار للإعلان عن الأحذية المصنعة من النباتات، والدعوة إلى الاستغناء في بعض الأيام عن استخدام البلاستيك، أو الدعوة إلى أن تقوم تجارة الشوكولاتة على أسس التجارة العادلة. لم يزعجها أبدًا أن بطاقة العمل الخاصة بها لم تعد تحوي سوى كلمات مختصرة: "كتابة النصوص"، بعد أن كان مسماها الوظيفي: "المسئول الأول عن كتابة النصوص". كما لم يزعجها أن انخفض مرتبها عن السابق. لكن كل ذلك لم يكن كافيًا أبدًا من وجهة نظر "روبرت". فهمت "دورا" في النهاية ما الذي أراده، ولكنها لم تكن قادرة على أن تعطيه ما يريد. كان يريد منها أن تكون تابعة له. أراد أن يتغلب على رفضها الداخلي. أراد منها أن تقتنع تمام الاقتناع بنهاية العالم، وازداد غضبه من عنادها الخفي، من عدم قدرتها على السير معه في صفوف المظاهرة الأولى. لم يكن راضيًا عنها، وأصبحا لا يتشاركان الضحك إلا قليلًا. لكنهما بشكل ما كانا مازالا يشكلان، رغم كل شيء، فريقًا واحدًا.

ثم جاءت كورونا، واكتشف "روبرت" مهمته الحقيقية. فقد تنبأ "روبرت" في يناير أن الوضع سوف يتفاقم في العالم كله، وبدا في ذلك الوقت مثل جهاز تنبؤ بالزلازل والكوارث عالي الحساسية. كتب في عاموده في الجريد الإلكترونية ناصحًا الحكومة بتوفير الكمامات، وكان ذلك في الوقت الذي اعتقدت فيه باقي الدول الغربية أن الأمر لا يعدو كونه مشكلة خاصة بالصين فقط.

سخر منه زملاؤه الصحفيون في البداية بسبب تلك النبوءات السوداوية. لكنه اشتهر بعد وقت قصير بامتلاك موهبة العرّافين. أصبح "روبرت" متخصصًا في قضية الكورونا، كأنما كان ينتظر طيلة كل تلك السنوات في الخفاء حتى يظهر الفيروس.
أخيرًا انتهى الانتظار، فقد ظهرت الكارثة وثُقبت السفينة، يمكننا أخيرًا أن نفعل شيئًا لمعالجة ذلك. يستجيب كل شيء للأوامر، وأي شك في الأوامر يقال إنه عصيان. أخيرًا أصبح الجميع يفكر بطريقة واحدة. أخيرًا أصبح الجميع يتحدث عن الأمر نفسه. أخيرًا وضعت قواعد ملزمة في عالم خرج عن السيطرة. أخيرًا استسلمت العولمة الملعونة. أخيرًا انتهى أمر التنقل الدائم عبر الحدود: تنقل البشر والبضائع والمعلومات.

تتفهم "دورا" موقف "روبرت". فالصراع ضد تغير المناخ صراع شاق. ولا أحد قادر على القيام بشيء فعلي. لكن الآن، الآن نستطيع القيام بأشياء كثيرة. فكل ما كان مستبعدًا من قبل، أصبح فجأة ممكنًا. فرملة الرأسمالية المفترسة، التقييد الصارم للتنقل. كورونا واضحة، سريعة، مأساوية ويمكن تصورها. يمكن قياسها من خلال النتائج المترتبة عليها. بالإضافة إلى ذلك يبدو وكأن ظهور الفيروس أمر حتمي تنبأت به الكتب السماوية. هل اقتربت نهاية العالم؟ فلابد أن تحل النهاية الكارثية يومًا ما.
عرف الجميع ذلك، شعر الجميع بذلك. فالحضارة الغربية تنبأت منذ وقت طويل بانهيارها، إذا لم تكن قد انهارت منذ البداية. وها هو الآن، ذلك الوباء العظيم، الذي جاء عقابًا على كل الخطايا، على الجشع والاستغلال وطريقة الحياة التي أُطلق لها العنان بالكامل.

لن يفلت أي من هؤلاء الذين كان "روبرت" يتهمهم منذ سنتين بالخمول والكسل. أصبح الجميع يركض هنا وهناك في ذهول، وأصبحوا فجأة مستعدين للاستماع إلى الخبراء، الجميع: رجال السياسة والأفراد العاديون، اليساريون واليمينيون، الأغنياء والفقراء، وقد وحد الخوف بينهم جميعا.

لم تستطع "دورا" التخلص من الانطباع أن الفزع العام جعل "روبرت" يشعر بالرضا، فازداد اقتناعًا يومًا بعد الآخر بفكرة نهاية العالم. مسلسل "الموتى الأحياء" في برلين. أخذ يملأ الخزانات بالمؤونة، ويشتري ورق التواليت والمطهرات على الإنترنت، ويتحدث بلا انقطاع عن ضرورة أن يستعد الإنسان للأسوأ. "دورا" أيضًا كانت تشعر بعدم الأمان حتى أنها كانت تشعر أحيانًا بخوف شديد. لكنها وجدت أنه من الأفضل أن تحتفظ بهدوئها. فلتنتظر الآن وتثق في قدرة رجال السياسة على تقييم الموقف بشكل صحيح وتثق في قدرتهم على إصدار التوصيات الصحيحة. سخر "روبرت" منها، كما سخر من رجال السياسة الذين كانوا في نظره غير قادرين على القيام بأي شيء صحيح. لم يفعلوا سوى أقل القليل وبعد فوات الأوان. كان يغضب عندما تذكره "دورا" أنهم يعيشون في دولة ديمقراطية حيث تستلزم عملية اتخاذ القرارات وقتًا. أخذ يجوب المدينة على دراجته وعلى وجهه كمامة اشتراها قبل أن يلتزم بها الآخرون، وبدأ يجمع الآراء داخل مكاتب الهيئات الحكومية وفي الشارع. كان يقود دراجته بالنهار، وفي الليل، يجلس أمام الكمبيوتر ليغذي حماسه المفرط بالتصريحات الجديدة والأرقام والحسابات. كان كالنشوان. وازداد عاموده نجاحًا يومًا بعد يوم، وبدأت "دورا" تشعر أنه يزداد غربة عنها. كان يضيف تحت كل نص وتحت

كل رسالة إلكترونية أو رسالة على الهاتف صيغة محددة: «أتمنى أن تظل بصحة جيدة!»، صيغة كأنها كلمة السر داخل جماعة سرية تحولت إلى حركة جماهيرية.

كانت الحياة المشتركة مع "روبرت" مرهقة بالفعل منذ العام الماضي. ثم أصبحت في شهر يناير مزعجة، وفي فبراير غير محتملة. وفي شهر مارس صدر الأمر بإغلاق المدارس والمطاعم والمحلات. وبدأت مفاهيم جديدة تظهر كل يوم ويتناقلها الناس، *الإغلاق، الإغلاق التام، تسطيح المنحنى*. معدل الوفيات، عدد الحالات، الحالات التي تستحق العلاج. تصاعد الفزع كأنما اختُرعت الأمراض واختُرع الموت من جديد.

فجأة وجدت "دورا" نفسها تعمل من المنزل. لم يبد لها ذلك في البداية سيئًا لدرجة كبيرة، على العكس، فقد تصورت أن العمل من المنزل له مزاياه أيضًا. ففي وكالة "سوس واي"، مثلها مثل كل الوكالات الإعلانية تقريبًا، لا يعمل مصممو الإعلانات في مكاتب منفصلة، فهناك يجلس حوالي خمسة وعشرون شخصًا فيما يطلق عليه «مساحة مفتوحة»، مما يؤدي إلى وجود ضوضاء دائمة في الخلفية. يقضي المستشارون تحديدًا طوال يومهم في اتصالات هاتفية محاولين استخراج المعلومات من العملاء وتلطيف الأجواء لهم، ولكنهم لا يفعلون في الواقع شيئًا سوى الحديث بلا انقطاع وبدون قدرة على إنتاج أية قيمة مضافة، وهو ما يجعل الأمر صعبًا على كاتبي النصوص الإعلانية المضطرين إلى البحث الدائم عن أفكار جديدة. العمل من المنزل هو بالتأكيد أكثر هدوءًا، وإن كانت "روخن" قد استاءت من ذلك لأنها افتقدت الذهاب إلى الوكالة حيث يدللها الجميع الذين يعتبرونها تعويذة الحظ. فعندما تقف "دورا" أمام ماكينة القهوة لصنع أول فنجان اسبرسو لها، تتجول الكلبة من مكتب إلى آخر لتحية المعجبين وجمع المأكولات اللذيذة التي كان الموظفون يجلبونها لها في أكياس صغيرة.

نجح العمل من المنزل في الأيام الأولى. كان بإمكانها اللجوء إلى تطبيق الواتس آب للعصف الذهني مع زملائها. وكانت الاجتماعات تعقد من خلال الفيديو. أكثر شيء افتقدته في الحقيقة كانت الثلاجة الممتلئة عن آخرها بزجاجات البيرة المجانية التي تشربها بعد العمل، وكانت وكالة "سوس واي" قد اشترت هذه الثلاجة بعد أن حققت لمصنع كروخر للبيرة أرباحًا كثيرة.

ثم ضاقت الشقة في شارع كرويتسبرج عليهما. "روبرت" كان يعمل دائمًا من المنزل لأنه صحفي حر، ولهذا فقد استولى منذ وقت طويل على حجرة المكتب الوحيدة في الشقة. بدت لها الحجرات واسعة للغاية عندما انتقلا إلى تلك الشقة، لكن انكمش الآن كل شيء حولها. قلص "روبرت" رحلاته الميدانية داخل المدينة إلى ساعة واحدة يوميًا بسبب الحد من التواصل، رغم أنه كان يعتبر تلك الرحلات ذات أهمية كبيرة للنظام. هكذا أصبح ثلاثتهم : هو و"دورا" و"روخن" طوال الوقت تحت رحمة بعضهم البعض في مساحة لا تتعدى 80 مترًا. في حجرة المعيشة طاولة واحدة مسطحة، فلم يكن أمام "دورا" خيار آخر سوى أن تعمل في المطبخ. كانت كثيرًا ما تذهب للتنزه مع "روخن". أصبحت نزهة الكلب الإلزامية لأصحاب الكلاب امتيازًا.

كانت الأجواء في الشوارع الخالية مخيفة. سيارات قليلة، ولا وجود للمارة تقريبًا. اختفت الأجهزة التي تساعد على المشي من حديقة "فيكتوريا بارك". تطل وجوه مغطاة باللون الأبيض من خلف زجاج إحدى الصيدليات. قال "روبرت" إن هؤلاء هم من يحاربون في الصفوف الأمامية. تنزعج "دورا" من تلك الصياغات. فبالرغم من كل شيء، لم تكن الجائحة حربًا. الحروب موجهة ضد البشر.

صادفت في الشارع ذات مرة رجلًا سارع بجذب كلبه بعيدًا عنها، كأنما يمكن أن تنقل كلبتها "روخن ديروخن" الفيروس. كان لهاث الحيوانات ذات الأربع وأصوات مخالبها فوق الأسفلت مزعجة أيضًا. صاحت أم شابة في أحد العدائين مطالبة إياه ألا يتنفس بقوة. وأخذت بعض الأعلام ترفرف من النوافذ لتعلن: «سنبقى بالبيت!» هؤلاء الناس كانوا جزءًا من شيء ما، حتى لو لم تكن "دورا" تعرف ما هو. يجلسون خلف أعلامهم ويأملون ألا تسوء الحالة في برلين كما ساءت في أماكن أخرى.

كانت نزهاتها كئيبة ولكنها مريحة في نفس الوقت. التخلص لفترة قصيرة من رهاب الأماكن المغلقة. أما "روبرت"، فكان يرى على العكس من ذلك أنه لا يمكن أن تترك "دورا" البيت ثلاث مرات في اليوم لتتنزه مع "يوخن".كان ينزعج بشكل عام للغاية من عدم إتباع المواطنين للقواعد. فعندما كانت تجلس عند طاولة المطبخ وتحاول أن تكتب نصوصًا مبدعة تعبر بها عن رغبات عملائها، كان "روبرت" يقطع الشقة جيئة وذهابًا ويلعن بصوت عال وبشدة، الغباء غير المفهوم الذي يتصرف به الناس. كان ينتظر أن تعلن "دورا" عن موافقتها على ما يقول. أن تهز رأسها على أقل تقدير. لكنها لم تكن قادرة على ذلك. لم تكن تعرف إذا كانوا الناس أغبياء فعلًا. من هم الناس الذي يعنيهم بالتحديد؟ هل هم أولئك الذين يجذبون كلابهم بعيدًا أم هؤلاء الذين يتجمعون أمام الأكشاك لتناول البيرة سويًا بشكل استعراضي؟

من هم الخيرون ومن هم الأشرار؟ إنها لا تعرف، ولا تريد أن تعرف. إنها ترى أن هذا السؤال خطير للغاية. تعرف أنها لا تحب أن يتحدث أحد عن «المدى التاريخي» و«نقطة التحول» بينما تحدث في أنحاء العالم طوال الوقت أشياء أفظع كثيرًا، لكنها تحدث فقط وفي أغلب الأوقات في أماكن أخرى. تصر على عدم تكوين رأي واضح في ظل غياب حل بسيط، وفرصة وجود هذا الحل أصبحت الآن أقل من المعتاد. لا يمتلك رجال السياسة أو علماء الفيروسات معرفة بالحقائق التي يجب على الناس إتباعها حتى يعود كل شيء أفضل من جديد. تتكون الحياة في معظم الأحيان من محاولات *التجربة والخطأ*، والأمور التي يستطيع الإنسان إدراكها والتحكم فيها أقل بكثير مما يعتقد. لا يمكن الخروج من هذه الورطة بفعل شيء أو بعدم فعل أي شيء. فالمهم هنا، من وجهة نظر "دورا"، هو حسن التقدير عند التصرف والتحدث بأكبر درجة ممكنة من الصدق، وأول شرط للصدق هو الاعتراف بعدم المعرفة الدقيقة بما يحدث. لهذا السبب ينصب رفضها الداخلي على الأوامر التي تقضي بضرورة التفكير، لكنها لا ترفض القواعد نفسها. بإمكان "دورا" إتباع القواعد، لكن ليس عليها أن تستحسنها وهي تتبعها، لا ضرورة لأن تتناول البيرة مع عشرة أشخاص أمام أحد الأكشاك لتثبت لنفسها أنها حرة أو مهمة. إذا كان *التباعد الاجتماعي* هو الاستراتيجية التي قرر المجتمع إتباعها، فهي على استعداد لأن تسير على نفس الطريق مع الآخرين. على استعداد لأن تسير بتعقل ولا حاجة لها لأن تكون في الصفوف الأولى. ربما تناسبها طريقة تعامل السويد مع الموقف بشكل أفضل، ولكنها الآن هنا وليست في السويد. تتبع القرارات، ولكن تظل الأفكار حرة. ليس بإمكان أحد إجبارها على أن تعتبر الأشخاص الذين يتناولون البيرة سويًا أمام الأكشاك خونة للشعب وخطرًا على الأمن العام.

لا يجبرها أحد إلا "روبرت"، الذي أراد أن توافقه على كل أرائه. هنا ظهر من جديد رفضها لإظهار الولاء، عدم اقتناعها التام بنهاية العالم. ازدادت عدوانية "روبرت" تجاه "دورا" لأنها لا توافقه على خطبه المليئة بالكراهية، ولا تتوقف عن النظر إلى شاشة الكمبيوتر. أصبح الكمبيوتر يتعطل مرة على الأقل يوميًا، وهذا يعني أنها مضطرة لإغلاق بعض البرامج وإعادة تشغيلها من جديد. Runtime Error 0x0. We are sorry for the inconvenience . تصورت "دورا" أن عطل الكمبيوتر له بالتأكيد علاقة ب"روبرت"، فتفاجأت من نفسها. كادت أن تبكي. "روبرت" كان شريكها، رفيقها، صديقها المقرب، وها هي الآن تعتقد أنه يصدَّر طاقة تعطل الكمبيوتر.

رأت ذات مرة في أثناء التنزه رجلًا يحمل جهازًا يقيس به المسافات بينه وبين الناس. وعندما يصفر الجهاز، كان يلوح بذراعيه ويصيح: «ابتعد!»

أفزعها ذلك أكثر من أي شيء آخر حدث من قبل. هل يمكن أن يفقد المجتمع بشكل جمعي عقله؟ عندما قصت ما حدث على "روبرت"، وصفها بأنها جاهلة. واتهمها بأنها لا تحاول الحصول على المعلومات الكافية، وأنها تغلق عينيها حتى لا ترى الخطر. وقال إن ذلك الرجل الذي يحمل صندوقًا يطلق الصفير رجل عاقل. شعرت "دورا" أنها مثل الطفل الذي لا يفهم ما يحدث من حوله.

لمس اتهام "روبرت" لها بأنها لا تملك المعلومات الكافية وترًا حساسًا لديها. فقد قل اطلاعها على الأخبار بالفعل كثيرًا منذ أن ظهرت الجائحة. إنها لا تريد أن تغلق عينيها أمام الخطر، لكنها لا تحتمل فكرة عدم وجود أي شيء آخر سوى كورونا. كأنما ليست الحرب في سورية ومعاناة اللاجئين ووجود النازيين الإرهابيين مشكلات حقيقية. كأنها مجرد أخبار للترفيه عن الناس، وسيلة يقضي بها مستهلكو وسائل الإعلام الذين يشعرون بالملل وقت فراغهم. ولكن الآن، ولأن ثمة جائحة منتشرة، فلم يعد أحد في حاجة إلى سماع مثل تلك الأخبار التافهة. هذا ما يصيب "دورا" بالذهول. تشعر بالغثيان عندما تقرأ عناوين الأخبار، وتخجل في نفس الوقت سرًا من نفسها لأنها لا تعرف آخر إحصاء لعدد الحالات المصابة. كأنما يُلزمنا الاستهلاك الإعلامي بضرورة المشاركة فيه. هذا ما يعتقده "روبرت" الذي يرى أن امتناعها عن الاطلاع على الأخبار جريمة.

أصبح كل منهما يشكل عائقًا أمام الآخر، هذا بالإضافة إلى صراعهما لإثبات صحة أفكارهما. فإذا أغلقت "دورا" إحدى النوافذ، يهم "روبرت" بفتح نافذة أخرى. وإذا دخلت الحمام يدق على الباب وتسمع صوته يسأل عمّا إذا كانت ستتأخر كثيرًا. وعندما تستغرق في التفكير في ابتكار العديد من الشعارات من أجل إحدى الحملات الإعلانية، أو عندما تبحث عن أفضل الآليات المناسبة لإعلانات الراديو من أجل حملة إعلانية مربحة ودائرة منذ وقت طويل، يركع "روبرت" في تلك اللحظة على ركبتيه ويبدأ في إخراج الأطباق من غسالة الأطباق الموجودة على مسافة عشرين سنتيمترًا فقط منها. كان "روبرت" يتعثر في "يوخن" ويدوس فوق أوراق "دورا" التي فردتها على الأرض بسبب عدم وجود مساحة كافية لها. وإذا أرادت أن تفتح الثلاجة، تجد "روبرت" واقفًا بثقة أمامها. وإذا صنعت لنفسها فنجانًا من القهوة، يقف إلى جانبها ويبدي لها نفاد صبره حتى تنتهي مما تفعله. إذا خرجت إلى الشرفة لتدخن سيجارة، يصيح من الداخل أن رائحة الدخان تنتشر في كل الغرف. كان من عادته أن يسير جيئة وذهابًا في ردهة

الشقة عندما يكتب عاموده، وكان يتحدث مع نفسه بصوت مسموع، وعندما ترجوه أن يتوقف عن الحديث، يزعم أنه لا يستطيع أن يكتب إلا إذا فعل ذلك.

بالرغم من أنهما كانا يقتسمان إيجار الشقة، إلا أنها شعرت أن غرف الشقة كلها تخصه وحده. فهو من كان يعمل في الشقة دائمًا، بينما كانت "دورا" تذهب للعمل في وكالة الإعلانات. بالإضافة إلى ذلك، فإنها فقدت حقها في التواجد داخل الشقة بسبب عدم استعدادها لتقبل فكرة نهاية العالم. ازداد رفضها الداخلي قوة، وبدأت قصة الزجاجات القابلة للاسترجاع، وهو الأمر الذي لا يسعدها تذكره.

أصبحت فترات غيابها عن البيت تطول. تجلس على أحد مقاعد الحديقة عند أطراف ملعب الأطفال المغلق، تضع "يوخن" فوق حجرها وتحاول أن تقرأ كتابًا على هاتفها المحمول. كانت تتوقف عن ذلك في أغلب الأحيان بعد دقائق قليلة ولا تفعل شيئًا سوى النظر أمامها. ففي تلك اللحظات يسكت كل شيء حولها فجأة، الأصوات، الأفكار، العناوين، المخاوف. تربت بيديها الكبيرتين على فروة الكلبة الدافئة، ويمتد حولها فضاء لا يخص أحدًا في تلك اللحظات. هنا كان يُسمح لها بالصمت، هنا يُسمح لها بالجلوس. كانت تعود بعد ذلك إلى البيت فيسألها "روبرت" عن السبب في غيابها طوال هذه المدة وما الذي كانت تفعله. بدأت تطلق عليه في ذهنها اسم «روبرت كوخ».

أعلنت الشرطة في بافاريا أنه لم يعد مسموحا بالجلوس على مقاعد الحديقة. وبعد ذلك بقليل أخبرها "روبرت" أنه لم يعد يقبل خروجها للنزهة. تحدث ببطء ووضوح كأنما تعاني "دورا" من مصاعب في الفهم. قال إن كل شكل من أشكال التحرك في الخارج يحمل خطر العدوى. وتصرفاتها غير المتزنة، تضعه هو، "روبرت"، في مجال الخطر أيضًا، وهو لم يعد مستعدًا لتقبل ذلك. ففي النهاية، يكفي تمامًا أن تخرج "يوخن" ثلاث مرات في اليوم لتقضي حاجتها عند جذع الشجرة.

اعتقدت "دورا" في البداية أنه لا يعني ما يقوله بجدية. وألمحت إلى أنه لا يوجد حظر تجول كامل في برلين، وأن خروج الفرد وحده للتنزه ما زال مسموحًا، خاصة إذا كان يصطحب كلبًا.

أجاب "روبرت" أن ليس هذا هو المقصود. فالمهم أن يفعل المرء كل ما بوسعه في الموقف الراهن حتى يمنع انتشار الفيروس. لابد وأن يساعد كل شخص في ذلك بقدر ما يستطيع وأن يتفضل ويتقبل الاستغناء عن أي تحركات غير ضرورية.

ذكّرته "دورا" بأنه ما زال يقود دراجته في شوارع المدينة حتى لو كان يفعل ذلك لمدة ساعة واحدة يوميًا.

قال "روبرت" غاضبًا إن الخروج إلى الشارع جزء من وظيفته. فهو يكتب عن الأزمة، وعاموده أصبح في هذه الأثناء من أعلى المقالات قراءة في الجريدة الإلكترونية. إن وظيفته مهمة للغاية للنظام العام، في حين لا يمكن أن يقول ذلك عن وظيفتها مع كامل الاحترام لها.

سألته مرة أخرى إذا كان يقصد الآن بالفعل منعها من مغادرة الشقة.

فكر "روبرت" قليلًا، وضحك محرجًا، ثم أومأ برأسه بالإيجاب. وفي تلك اللحظة، تعطل كمبيوتر "دورا" فوق طاولة المطبخ والذي كان يعمل بكفاءة منذ قليل.

.0x0 . We are sorry for the inconvenience

تلك كانت اللحظة التي تغير فيها شيء ما في تفكير "دورا". نظرت إلى شاشة الكمبيوتر السوداء ثم نظرت إلى "روبرت" الذي كان لا يزال واقفًا أمامها. اعتقدت أنها لم تعد تعرف ذلك الرجل. ثمة احتمالات ثلاثة: إما أنها تورطت في فيلم عبثي فُرض عليها أن تلعب فيه دورًا بدون أن تكون قد قرأت السيناريو. أو أن "روبرت" أصابه الجنون. أو أنها أصيبت هي بالجنون. لم ترغب "دورا" في أي من تلك الاحتمالات. أرادت فقط أن تبتعد عن هنا. فعقلها لم يعد يواكب ما يحدث هنا الآن. لم تشعر بالألم. شعرت فقط بالانزعاج وسيطر عليها رد فعل عكسي يدفعها للهروب. قالت لـ "روبرت" إنها سوف تقيم في مكان آخر لفترة من الوقت ثم حزمت أشياءها في حقيبة.

لم تكن قد أخبرته عن البيت في الريف، واللحظة الآن لم تكن بالتأكيد مناسبة لاستدراك ذلك. لم يسأل هو على أية حال عن المكان الذي ستقصده. ربما شعر بالفزع. ربما فرح بذهابها. ربما اعتقد أنها سوف تنتقل لفترة من الوقت إلى شقة والدها في شارلوتنبورج الخالية في معظم الأوقات، لأن "يويو" لا يأتي إلى برلين إلا كل أسبوعين لإجراء عملية جراحية. لم يساعدها "روبرت" في حمل أشيائها إلى أسفل. لم يلحظ غالبًا ما أخذته معها: حقيبتين وثلاث صناديق من الكرتون تحوي ملابس وكتبًا وأغطية وملاءات وفوطًا وبضعة أدوات للمطبخ وأوراق عملها وبضعة أجهزة كهربائية. أما مرتبة فراشها الثقيلة فقد جعلتها تنزلق فوق الدرج.

استأجرت سيارة لنقلها هي والأمتعة وخرجت من المدينة. بدا لها أن الأمر يصبح أكثر سهولة مع كل كيلومتر تبتعد فيه. لم يكن "روبرت" فقط هو ما تركته خلفها، فهي تركت أيضًا المدينة الكبيرة، ضيق الأماكن، تدفق المعلومات والمشاعر المستمر. شعرت وكأنها تغادر العالم في سفينة فضاء تذهب بها إلى مجرات جديدة. إنها تعرف هذا الشعور تمامًا، فهو الشعور الذي راودها عندما عاينت البيت الريفي في الخريف الماضي.

الانطلاق. أحبت تلك الكلمة، لها وقع مثل الهروب من الصندوق. كانت تعاين المكان في أغلب الأحيان بدون اصطحاب الوسطاء العقاريين، وهو ما وافق هوى الوسطاء. فالمكان بعيد إلى حد كبير، والعمولة منخفضة إلى حد كبير أيضًا. مستندات بي دي إف، صور، عناوين، معاينة خارجية. انبهرت بفكرة أن يكون بمقدورها بالفعل شراء بيت في الريف. كلما ابتعدت أكثر كلما كانت الأسعار في متناولها. كان من السهل في سنها ومع وظيفتها الثابتة أن تحصل على قرض. الفوائد منخفضة ولدى "دورا" أيضًا مدخرات: ميراثها الصغير عن أمها بالإضافة إلى ما كانت تدّخره كل شهر منذ أن أصبحت كبيرة محرري الإعلانات في الوكالة وتحصل على أجر أعلى يماثل أجر كبار المعلمين. بيت في الريف. كان سيعجب أمها، كانت ستحبه. وكانت ستضحك من أن "دورا" لم تخبر أحدًا عن خططها. كانت ستقول «ابنتي عضوة عصابة» وكانت ستربت على شعرها. أحيانًا كانت "دورا" تتصور أنها ورثت رفضها الداخلي من أمها.

شعرت بتأنيب الضمير وهي تقوم برحلاتها السرية. لماذا لم يصحبها "روبرت"؟ لماذا كانت تذهب إلى هناك بدون علمه ولا يرافقها؟ شعرت كأنها تخونه وأنها تستمتع بالخيانة. لكن ذهابها وحدها كان يشعرها في الواقع بالراحة. حقول ممتدة أمامها، ألوان باهتة، سماء ضخمة. لم تستمتع بشيء إلى هذه الدرجة منذ وقت طويل. كانت تستمتع حتى عندما لا تعجبها البيوت التي تعاينها، التي كانت إما أصغر من اللازم أو أكبر من اللازم أو بلا روح. وعندما بدأت الأوراق تتساقط من الأشجار لم تعد تصدق أنها ستجد بيتًا ملائمًا لها. وبالرغم من ذلك استمرت

في رحلاتها. كانت تقوم بها في عطلات نهاية الأسبوع بينما يعتقد "روبرت" أنها تشارك في ورشة عمل.

ثم وجدت ذلك المنزل في براكن بالصدفة. توقفت بسيارتها المستأجرة أمام السياج المتهالك وعرفت على الفور أن هذا هو البيت. غرف كبيرة، وحوله أرض نمت فيها النباتات بتوحش، واجهة من الجبس الرمادي. يقع البيت عند أطراف القرية. وبعد ستة أسابيع كانت لدى موثق العقود في المقاطعة توقع عقد الشراء.

ثم حلت أعياد الميلاد، ثم رأس السنة الجديدة، ثم جاءت في النهاية كورونا، وها هي الآن تذهب من جديد إلى براكن وقد ملأت السيارة المستأجرة بمتعلقاتها. كانت تخشى بينها وبين نفسها ألا تجد البيت على أرض الواقع. فقد مرت ثلاثة شهور منذ أن اشترته. استغرق الأمر في البداية ستة أسابيع حتى تمكنت من تحويل النقود، ثم ظلت حبيسة برلين بسبب الإغلاق. ربما سيوقفونها عند أحد الحواجز المقامة في الشارع ويعيدونها إلى المدينة. وربما تصل إلى براكن ثم تجد موقع البيت عند أطراف القرية خاليًا. كل ذلك تخيلات. كان العرق يغمرها عندما تطرأ هذه الأفكار على ذهنها. لكنها لم تصادف أية حواجز في الشوارع. وعندما وصلت إلى براكن وجدت البيت الريفي في مكانه فوق قطعة الأرض الملحقة به تمامًا كما وجدته أول مرة.

قفزت "دورا" من السيارة. ظلت واقفة مكانها لبرهة تنظر حولها. فركت عينيها، ليس لأنها لا تصدق ما تراه، وإنما لأن عينيها امتلأتا بالدموع. كان البيت جميلًا جدًا. إنها آخر أيام الخريف والأوراق الممتدة فوق قمم الأشجار تلونت بألوان مختلفة. إنها الآن مغطاة بلون أخضر رقيق كما لو كانت قد رُشت باللون الأخضر. وتحت الأشجار كان البيت تمامًا كما تتذكره، بعيدًا عن الشارع وبناؤه متناسق يبعث شعورًا بالارتياح. ثلاث نوافذ على اليمين وعلى اليسار، وبينهم باب مزدوج للمدخل. عواميد من الجبس تحيط بالأبواب والنوافذ وتحمل سقفًا صغيرًا مثلث الشكل. الطابق الأرضي مرتفع عن الأرض يؤدي إليه درج مفتوح يتكون من ست درجات تنتهي إلى بسطة فسيحة للغاية يمكن أن تضع فيها بكل سهولة مائدة و أربعة مقاعد. يحيط بالبسطة درابزين من الحديد فتبدو وكأنها شرفة. يستند سقف البيت الريفي مباشرة إلى الطابق الأرضي، كأنه قبعة سوداء مضغوطة فوق الجبهة. يبدو أن مالك البيت في براكن فقد فجأة المال الكافي لبناء طوابق أخرى.

عرفت "دورا" من الوسيط العقاري أن ملكية البيت انتقلت بعد توحيد ألمانيا إلى مجموعة من الورثة الذين استغرقوا أعوامًا عديدة حتى اتفقوا على بيعه. امتلكه بعد ذلك زوجان شابان، بدآ في أعمال الصيانة والتجديد بحذر، لكنهما سرعان ما اختلفا وتوقفا. ظل البيت خاليًا لفترة طويلة قبل أن تشتريه "دورا". لم يخبرها الوسيط العقاري عن طول هذه الفترة على وجه التحديد. قال عنه أنه «جوهرة بها إمكانيات غير محدودة،» وهو تعبير آخر لجملة «حالته متدهورة.»

الأمر سيان بالنسبة ل"دورا". كانت قد شعرت على الفور أن البيت يناسبها. يعطي البيت الإيحاء أنه بشكل ما صغير جدًا ولا تناسبه مثل تلك الزخارف من الجبس ولا يناسبه مثل هذا السقف الكبير. لكنه يقف في شموخ كأنه رجل عجوز مضحك يحافظ بصرامة على مظهره. تبدو المثلثات فوق النوافذ كأنها حواجب مرفوعة. من

الواضح أن البيت يحتاج إلى مساحة كبيرة من الأرض حوله، إلا أن السور الذي يحيط بأرض الجيران إلى اليمين والذي يبلغ طوله على الأقل مترين قريب جدًا منه. لو كانت "دورا" طفلة لأشارت إلى الدرج المفتوح وقالت «أنظروا، إن البيت يخرج لنا لسانه.»

كان امتلاك بيت ريفي في البداية فكرة مسيطرة على ذهنها. ثم أصبح الآن أمرًا منطقيًا. أصبح ملاذًا آمنًا. وبالرغم من ذلك لا تستطيع "دورا" أن تصدق أنه من الممكن امتلاك مساحة كبيرة مثل هذه. وعندما تتأمل البيت، تتخيل أنه يسأل: «مَن هنا يمتلك مَن؟»